قبسات من فكر الإمام الشهيد ومنهجه العقدي

الدكتور أحمد عبد الجليل الزيبيي

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده ويدفع نقمه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فإن شخصية العلامة الإمام الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله شخصيةٌ فذةٌ تكادُ جوانبُ عظمتها تتكامل، ويتراصف بعضها بجانب بعض لترسم صورةً مشرقةً لا نكاد نعثر على مثيل لها إلا نادراً. شخصيةُ عالمٍ ربانيٍ تفانى في حب الله تعالى، وذاب في عبوديته للواحد القهار، فألبسه الله رداء محبته وقربه، فغدا يناجيه في كلّ كلمة ينطق بها وفي كل فعل يقوم به، وكأنّ شهودَه يتراءى له في كلّ شيء من حوله، فكان محورَ حياته وفكره، ومنطلَق دعوته، وغاية جهده.

وقد حاولت في هذا البحث الذي عنونته بـ: «**قبسات من فكر الإمام الشهيد ومنهجه العقدي**» أن اتناول بعض جوانب هذه الشخصية لعلي أضيئ جانباً يسيراً – قدر المستطاع – من جوانب عبقريته وإبداعه.

وترجمت لهذه القبسات بالعناوين الآتية:

القبس الأول: في الثقة بالعقل وأحكامه ونقد منهج وليم جيمس البراغماتي.

القبس الثاني: ملامحُ من منهج الإمام الشهيد في تأليف كتابه: كبرى اليقينيات الكونية– وجود الخالق ووظيفة المخلوق.

القبس الثالث: في موقفه من علم الكلام ودفاعه عنه.

وقد آثرت أحياناً أن أنقل نصوصاً حرفيةً من كلامه رحمه الله تعالى، لعل في ألفاظه وكلماته ما يزيد من نفع هذا البحث، ويتركُ الأثر الطيب في نفوس قارئيه.

القبس الأول: الثقة بالعقل وأحكامه ونقد منهج وليم جيمس البراغماتي:

تمهيد: من المعروف تاريخياً أن ثمّة من يشكّك في إمكان العلم والمعرفة ويقول: إننا لا ندري أهناك حقيقة أم لا ؟ ومِنْ ثَمَّ انتقد الأدلة العقلية النظرية ولم يعوِّل عليها بوصفها طريقاً للمعارف الاعتقادية. ومن أهم هؤلاء فريقان:

1 – السُّمَنِيَّة: وهي طائفة هندية زعمت أنه لا يُعْلَمُ شيءٌإلا من طريق الحواس الخمس. وتهدف إلى إبطال العلوم النظرية , وتزعم بأن المذاهب كلّها باطلة [1].

2 – السوفسطائية بفئاتها الثلاث (العندية – العنادية – اللاأدرية): وهي تشكّك في الحسيات والعقليات جميعاً , وتجعل من الوهميات فقط مقياساً للمعرفة الإنسانية. وتبطل الحقيقة المطلقة عندها لتحلَّ محلَّها الحقائق والمعارف المتعددة بتعدّد حالات الشخص الواحد, كما يبطل الخطأ أيضاً[2]. وقد تكلّم العلماء على إبطال مذهب هذين الفريقين بما يغني عن الإعادة هنا[3]

وفي مقابل مذهب الشك نجد مذهب التيقن أو المذهب الاعتقادي أو القطعي الذي يذهب إلى القول بقدرة الإنسان بلا حدود للوصول إلى معارف يقينية. وأصحاب هذا المذهب بصفة عامة هم أصحاب المذهب العقلي ويمثّله ديكارت (1650م) وتلاميذه سبينوزا (1677م)، وليبنتز (1716م) ومالبرانش (1715م)؛ والمذهب التجريبي الذي يعدّ جون لوك (1704م) رئيس فلاسفته.وقد كان كلٌّ منهما يعتقد اعتقاداً جازماً في مصدر المعرفة الذي يأخذ به , وبقدرة الإنسان على أن يكتسب من هذا المصدر معرفةً يقينيةًلانهاية لها[4].

ثم إن العلوم النظريــة نوعان: عقليٌّ وشــرعيٌّ. وكلٌّ واحدٍ منهما مكتسبٌ للعالِم به، وواقع منه باستدلالٍ منه عليه[5].

ومقصدنا هنا الحديث عن المعارف والحقائق الاعتقادية تحديداً , وبيان موقف العلامة الشهيد من قدرة العقل في الوصول إليها.

---

[1] أصول الدين للبغدادي ص 10 – 11.

[2] انظر: شرح العقائد النسفية للتفتازاني ص 23 – 24 ، وتمهيد للفلسفة للدكتور محمود حمدي زقزوق ص 125 – 126.

[3] انظر: المدخل إلى دراسة علم الكلام للدكتور حسن محمود الشافعي ص 131 – 132 ، وتمهيد للفلسفة للدكتور زقزوق 125 – 127 .

[4] انظر:تمهيد للفلسفة للدكتور زقزوق 130 – 132 ، ومدخل نقدي للدكتور محمد عبد الله الشرقاوي ص 256 و260 .

[5] انظر أصول الدين للبغدادي ص 9.

أولاً:موقف الإمام الشهيد من العقل وأحكامه:

لا يختلف موقف العلامة البوطي عن موقف علماء المسلمين من الثقة بالعقل وأحكامه , ومن قدرته على الوصول إلى الحقائق والمعارف الاعتقادية ؛ وجهودُهم العلمية في علم الكلام تحديداً – وهو واحد منهم – هي خير دليل على ذلك.و مما يؤكّدُ هذه الحقيقة أمورٌ ثلاثة:

الأول: أنه – رحمه الله – استخلص المنهج العلمي للوصول إلى الحقيقة من مؤلفاتهم, والذي يتلخّص بقاعدةٍ جليلةٍ وهي قولهم: ((إن كنت ناقلاً فالصحة, أو مدعياً فالدليل)) ذلك أن موضوع البحث لا يخلو دائماً من أن يكون خبراً منقولاً , أو دعوى مزعومة. فأما ما قد يكون منه خبراً فإن البحث فيه ينبغي أن يكون محصوراً في تحقيق النسبة بينه وبين مصدره. وأما ما يكون منه ادعاءً فإن البحث فيه ينبغي أن يتجه إلى الأدلة العلمية المنسجمة معه التي من شأنها أن تكشف عن مدى صدق هذا الادعاء.ولكلِّ نوع من الدعاوى نوع من الأدلة العلمية يناسبها[1].

وقد فصّل في هذا المنهج أيما تفصيلٍ, وأقام البراهين العقلية العلمية على صحته، وقارنه بمنهج علماء الغرب إنْ في منهجهم في تمحيص النقول والأخبار أو في تمحيص (دعوى) من الدعاوى أو (فرضيةٍ) من الفرضيات , وأظهرَ عُوارَهما[2].

والثاني: أننا نجده يقول: ((والعقيدة عندنا , –يعني نفسه وعلماء المسلمين– وفيما تمليه علينا حقائق الإسلام نفسه , يجب أن تكون الأساسَ المطلقَ للإرادة والرغبات الإنسانية على اختلافها , فلا تسير الإرادة ولا تتجه الرغبة إلا تبعاً لما تخطُّهُ العقيدة الحرة المطلقة.و لذلك كان عليها أن تنطلق في وجودها من نقطة الصفر أو اللاشيء – كما يقرر الغزالي – ليس معها إلا عدّة من العقل والمنطق المجردين , شريطة أن تتوفر فيهما مقومات السلامة والكمال))[3]. أقول: أي أنه إذا كانت الوسيلة المستخدمة أو المنهج الفكري من أجل الوصول إلى الحقيقة صحيحاً فلا بد أن تكون الحقائق التي يفضي إليها هذا المنهج صحيحةً أيضاً ؛ ومن ثمة فالمطلوب إذاً أن تكون العقيدة مستندة إلى قرار العلم وحده دون تأثير عاملٍ آخر.

ومن الواضح أن الشك الذي سبق الحديث عنه في التمهيد السابق يختلف اختلافاً تاماً عن نوع آخر من الشك يسمى الشك الإرادي المنهجي أو الفلسفي؛أي القلق الداعي إلى الشروع في

---

[1] انظر: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 31 – 32.

[2] انظر: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 31 – 54.

[3] منهج تربوي فريد للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص 8 .

البحث للتحقق من جلية الأمر، وإزالة الشك في أمور العقيدة، إذ إن هذا الشك الإرادي أو المنهجي لا يرفض الحقيقة ولا ينكر قدرة الإنسان على المعرفة, وإنما هو كما يقول ديكارت(1650م): ((وسيلةٌ للحصول على معرفة الحقيقة معرفة أكثر وضوحاً))[1]؛ أو مجردُ طريق للوصول إلى الحقائق كما يقول الغزالي (55هـ): ((الشكوك هي الموصلة إلى الحقائق فمن لم يشك لم ينظر, ومن لم ينظر لم يبصر , ومن لم يبصر بقي في العمي والضلال))[2]. فهذا الشك المنهجي ضروري وله أهميته عند كل باحث عن الحقيقة؛ وهو لا يهدف إلى إبطال الحقائق العلمية بقدر ما يهدف إلى الوصول إليها مما يؤكد الثقة بالعقل وبأحكامه عند القائلين به.

والثالث: تقريره لقول علماء التوحيد من أن شرط صحة إيمان المؤمن أن يكون قائماً على دعائم اليقين العلمي المجرد , لا على شوائب من التقليد والاتباع, وذلك امتثالاً لأمر الله تعالى بقوله: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[الإسراء: 36].

و قوله ﷻ هو ينعى على أقوام غامروا بعقولهم في متاهات الأوهام والظنون التي من شأنها أن تغشِّي على الحقائق لا أن تكشف عنها:

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)[يونس: 36].

وقوله جل وعلا:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 170].

ويقول –رحمه الله–: ((وأنت ترى النهي – يعني في النصوص السابقة– عن تبني أي فكرة ،حتى الدين نفسه إلا عن طريق ما يثبته العقل الصافي من الدلائل اليقينية التي من شأنها أن تكشف عن حقيقة المطلوب... وذلك لأن الحقيقة العلمية تعتبر في حكم الدين– يعني الإسلام– قمةَ المقدسات الفكرية وينبوعها , فهي التي ينبغي أن يحج إليها الفكر في خضوع وتطواف دائب. وهل من دليل على هذا الاعتبار أقوى من أن تجد الدين نفسه لا يرضى أن يقيم وجوده وقدسيته إلا على دعائم العلم وبراهينه، ولا يرضى أن يتخذ لنفسه حكَماً من دونه؟))[3].

---

[1] انظر: تمهيد للفلسفة للدكتور محمود حمدي زقزوق ص 127 وانظر: أيضاً دروس في تاريخ الفلســـفة للدكتور إبراهيم بيومي مدكور والأستاذ يوسف كرم ص 154.

[2] انظر: تمهيد للفلسفة للدكتور زقزوق نقلاً عن ميزان العمل للغزالي ص 409 .

[3] كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 30.

ويقول – رحمه الله– مخاطباً كل من يناقض نفسه فيأخذ بأحكام العقل فيما يطيب له ويدعها فيما لا يحب:((إن الذي لا يطمئن إلى أحكام العقل لا يقيم حياته المعيشية وعلاقاته الدنيوية المختلفة مع الآخرين على أدق إيحاءات العقل وأحكامه , وإن الذي لا يطمئن إلى أحكام العقل لا يقيم حياته الفكرية على مبادئ فلسفية مختلفة[1]؛ زاعماً أنه قد اتبع فيها بصيرة العقل ودلائل العلم. إن الذي لا يطمئن إلى أحكام العقل لا يتعامل معه في كل مصالحه وشؤونه السلوكية المختلفة , حتى إذا رأى نفسه وجهاً لوجه مع دلائل الإيمان بالله وتوابعه أعلن فجأةً عن عدم اطمئنانه إلى العقل,وقاطع العقل قائلاً: لا أعرفك ولا أتعامل معك !!.

إن الذي لا يطمئن إلى أحكام العقل ولا يرى خيراً في اتباعه , إنما هو رجل قاطع العقل خلال رحلته الدنيوية جملة , فهو لا يسترشد به في إقامة معيشة أو اقتناص مصلحة أو تخطيط سلوك. ومثل هذا الإنسان يقال عنه في اصطلاح الناس كلهم (مجنون)! ومثل هذا الإنسان يقبل الدين معذرته ويضعها على العين والرأس؛ وليبتعد عن حقائق الكون ما طاب له الابتعاد وليكفر بها ما وسعه الكفر فإنما هو مجنون وليس على المجنون حرج)) [2].

ثانياً:نقده لوليم جيمس في مذهبه البراغماتي:

سبق أن قلنا أن الإمام الشهيد قد أوضح خلل منهج الباحثين والمفكرين الغربيين في تمحيص النقول والأخبار أو في تمحيص (دعوى) من الدعاوى أو (فرضية) من الفرضيات.

ولسنا معنيين بنقد منهجهم في الأمر الأول في بحثنا؛ ولكننا نشير هنا إلى مستندهم فيه فقط، وهو ما يعرف بالمنهج الاسترادي أو منهج التوسم. وهو بالتحقيق لا يرقى إلى منهج علمي موضوعي صحيح بل لا يفيد في الغالب إلا محض الاستنتاج والتخمين[3].

وأما الأمر الثاني وهو منهجهم في تحقيق (دعوى) من الدعاوى أو (فرضية) من الفرضيات, فيحتاج إلى تفصيل. فما تعلق منها بفرضيات العلوم الطبيعية، فقداستطاعت أوربا بدءاً من عصر النهضة أن تبدع له منهجاً من التجربة والمشاهدة تتوفر فيه كل مقومات الروعة والدقة. وما تعلق منها

---

[1] ليس المراد من قوله:(مختلفة)أنّ هذه المبادئ المختارة متعارضةٌ أو يناقض بعضها بعضاً، بل المراد أن صاحب هذه المبادئ يتخيرها من جملة مبادئ مختلفة ويزعم أنه في اختياره لها قد اتبع بصيرة العقل ودلائل العلم.

[2] كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 11.

[3] انظر: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 42 – 45.

بالمدركات اليقينية التي تدخل تحت اسم المجردات والغيبيات, فقد تخلفت فيه أوربا بقدر ما ترقت صُعُداً في الميدان الأول[1].

فلقد انصرف الباحثون في الغرب إلى ((فرض ما طاب لهم من النظريات والفروض في أذهانهم كلٌّ حسب ما يروق له أو حسب وحي البيئة والمجتمع والدراسة التي نُشِّئ في ظلالها. ثم راحوا يستخرجون الأدلة الاستنتاجية الملائمة لما سبق أن فرضوه أو اعتمدوه , كما راحوا بالمقابل يزيفون الأدلة التي تناهض معتمدهم بدافع محض الرغبة في ذلك.

ولكي لا نظلم قلةً من الباحثين الذين تجردوا عن أمانيهم واستقبلوا بأفكارهم شطر بحوث حرة مجردة، ينبغي أن نقول: إ ن هذا الوصف إنما ينطبق على العقلية التي تمثل أغلبية المفكرين الغربيين، وفي أغلب القضايا ذات الطابع المذكور.

ولا ريب أن أجلى انعكاسات هذه الحقيقة وأوضح دلائلها المعبرة ، تلك المدرسة الفكرية التي قامت تزعم أن العقيدة يمكنها أن تتلو الإرادة النفسية وأن تخضع لها.فحسبك لكي تعتقد بأمرٍ ما، اعتقاداً جازماً، أن تتجه منك الإرادة إلى ذلك وأن تشعر بمجرد الحاجة إليه، فسوف لا تعجز إرادتك أو حاجتك إذ ذاك عن أن تستخرج لك الدليل تلو الآخر على ما تفضل الاعتقاد به. وفي مقدمة من اتخذ هذا المنهج وسيلة للبحث,المفكر الأمريكي المشهور(وليم جيمس) وكتابه الذائع (البراجماتزم) من أهم المصادر التي تشرح هذا المنهج وتدعو إليه.

ويتجسد أغرب مظهر لهذا المنهج الذي استقطب طائفة كبيرة من الباحثين الغربيين، حينما يقسم جيمس الاتجاهات الفكرية الضرورية إلى اتجاهين: حي وميت، ويفسر الاتجاه الميت بذلك الذي لا يجد الباحث في نفسه أي ميل إليه، ويضرب مثلاً للاتجاه الميت بما إذا قيل له: كن صوفياً أو مسلماً, في مقابل ما قد يقال له: كن مسيحياً أو لا أدرياً.. فإن الشق الأول من البحث محكوم عليه بالبطلان سلفاً، نظرا لأن الاتجاه إليه مفقود والرغبة منصرفة عنه[2].

ولا أشك أن هذا المنهج الذي ينادي به آخرون أيضاً غير وليم جيمس، قد خالفه (من الناحية النظرية) كثيرون غيرهم. غير أن واقع الأبحاث المختلفة تنطق حتى بالنسبة لهؤلاء المخالفين، بالمنهج نفسه وتنادي بصوت مرتفع: إن العقيدة سلباً وإيجاباً ينبغي أن تتأسس على نصيب كبير من مجرد الرغبة إن لم نقل على الرغبة وحدها. وهذا يعني أن من العبث أن تبحث عن أيِّ ظلٍ للموضوعية في

---

[1] انظر: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 45 – 46.

[2] انظر : العقل والدين لوليم جيمس ص 4 و5.

بحوثهم اللهم إلا قلةً نادرةً منهم، لاسيما وأن سبيل الاستنتاج – وهو السبيل الوحيد لتحقيقاتهم في هذا الباب– ذو مرونة كبرى من شأنها الاستجابة لكلّ رغبة واتجاه))[1].

وأقول: فهل رأى عاقل ميزاناً يبني عليه اعتقاده أشدَّ جوراً من هذا الميزان الذاتي الشخصي؟! أو ليس لكلّ واحد منا إرادته ورغبته اللتان قلما تيسر له أن يتوافق فيهما مع الآخرين؟ ثم أين هي القيمة الموضوعية الذاتية لما هو جديرٌ بأن يعتقد، والتي تتعالى عن واقع الإرادة والرغبة الذي قد لا يَقرُّ على قرار ؟ وما دور العقل وبراهينه وحججه في بناء الاعتقاد؟ ولماذا يقفز هؤلاء من فوقها؟.

ثم يتابع العلامة الشهيد نقد أصحاب هذا المنهج فيقول: ((والقدر المشترك بين جيمس وسائر الغربيين، أنهم يكونون نسيج العقيدة الدينية في أفكارهم من خيوط المصالح الدنيوية المختلفة التي ينزعون إليها في معيشتهم وحياتهم. فلا جرم أن عقائدهم الدينية لا تفيض على حياتهم من داخل أفكارهم وعقولهم، بل هي على العكس: تفيض على عقولهم وأفكارهم من واقع شؤونهم وحياتهم.

وانظر كيف يعبر المفكر البريطاني (بنتام) عن هذا المنهج الفكري أوضح تعبير عندما يقول: "يجب أن يكون سير الديانة موافقاً لمقتضى المنفعة.فالديانة باعتبارها مؤثراً تتركب من عقاب وجزاء، فعقابها يجب أن يكون موجهاً ضد الأعمال المضرة بالهيئة الاجتماعية فقط، وجزاؤها يكون موقوفاً على الأعمال التي تنفعها فقط. والطريقة الوحيدة في الحكم على سير الديانة هو النظر إليها من جهة الخير السياسي في الأمة فقط وما عدا ذلك لا يلتفت إليه"))[2].

وأقول: فلنقرأ معاً قول جيمس الصريح الذي يعبر فيه عن موقفه من الدين والله جل جلاله ونصه: ((إذا كان فَرَضُ الله يعملُ عملاً مُشْبِعاً بأوسع معنًى للكلمة، فهو صادق، وذلك لأن البراغماتية لا تنبِذ أيّ فَرَضٍ إذا كانت النتائج المفيدة للحياة كامنة فيه))[3].

إن مقياس الحق والصواب في الفلسفة أو الفكر بل في العقائد والأخلاق كذلك عند هؤلاء هو المنفعة العملية أو العمل المنتج وليس العقل. أإلى هذا الحدِّ يستخف بالعقيدة وينظر إليها نظرة ذرائعية بعيدة كل البعد عن الموضوعية ؟! فبدلاً من أن تكون هي الأصل وتتحكم بالإرادة والرغبة أضحت هي الفرع تابعاً لا متبوعاً، محكوماً عليه لا حاكماً.

---

[1] كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 46 – 47.

[2] كبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص 47 – 48 ، وبحاشيته: أصول الشرائع ص 37.

[3] مدخل نقدي لدراسة الفلسفة للدكتور محمد عبد الله الشرقاوي ص 173 نقلاً عن البراغماتية لجيمس ص 347.

ويتابع العلامة الشهيد كلامه فيقول: ((وحينما وجدوا أن طبيعة العقل تختلف كلّ الاختلاف عن هذا المنهج في البحث والنظر، ورأوا أن ترك زمام العقل، يفكر في القضايا الغيبية والمجردة كما يجب، سيسبب لهم فسادَ كثير من قواعدهم وأحكامهم الفكرية التي أقاموها على هذا المنهج- لم يبالوا أن يقيموا مدرسةً فكرية أخرى قُوامها الاستهانة بالعقل وإنكار حججه وبراهينه، وأن يحذر بعضهم بعضاً من غوائل العقل على الدين (أي على الدين الذي فهموه طبق منهجهم الذي أوضحناه) وأصبح شعارها: (إنقاذ الدين من العقل)!!

وأنت تعلم أن السير في هذا المنهج الطريف، كما يقتضي منهم عدم الالتفات إلى العقل المجرد، في سبيل سوق القيم الفكرية العامة وراء ما تواضعوا عليه من المصالح والمنافع المختلفة-فإنه يقتضي أيضاً تفنيد كل فهم آخر لهذه القيم والعقائد لا يتفق ومصالحهم مهما كانت صلتها بالعقل ومهما كانت من البداهة والوضوح.

فمن أجل ذلك تجد أنهم- في الوقت الذي يكبلون فيه عقولهم خائفين من غوائلها على عقائدهم التي أقاموها استجابة لأوضاع معينة في حياتهم- ينحطون بالهجوم على عقائدنا نحن التي أُقيمت- كما رأيت— استجابة لحكم العقل المجرد طبق منهجه العلمي السليم: وذلك بدعوى ما يعلمون أنهم كاذبون فيه من حرية الفكر والعقل وعدم الاهتداء إلا بهدي العلم !.

أي أن هذا الهجوم المقنع بقناع البحث العقلي الحر، ليس إلا استجابة للمنهج ذاته الذي التزموه؛ إذ إنّ عقيدة لا تتفق مع مصالحهم وميولهم وآمالهم المختلفة جديرٌ بها أن تحارب منهم مهما كان مستندها وبرهانها)) [1].ثم يذكر- رحمه الله- فيضاً من الأمثلة التي يشترك معظمها في إثبات أمرين اثنين معاً: طريقة الاستنتاج المجرد العاري عن أي تثبت أو استقراء، وأثر الرغبة في الدفاع عن وجهة معينة وبناء العقيدة على أساسها[2].

وأقول أخيراً وليس آخراً: إن هذه المدرسة الفكرية التي قامت تزعم أن العقيدة يمكنها أن تتلو الإدارة النفسية وأن تخضع لها، بعيداً عن منهج علمي أو ميزان فكري، بل حتى ولو كان من وراء ذلك هتك الحقيقة وتدنيسها، فإنه حينئذ يغدو وصف هؤلاء المفكرين بالموضوعية أو الأمانة العلمية لغواً من الكلام بل هو من أفجر الكذب؛ ولهذا لا ينقطع عجبه - رحمه الله- ممن يسمِّي الحقائق الدينية التي وصل إليها الباحثون المسلمون بمنهجٍ علميٍّ صحيحٍ بـ: (الاعتقادات) ويسمِّي

---

[1] كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 48 .

[2] انظر: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 49 – 52.

أصحابها بـ (الاعتقاديين) في الوقت الذي يلتفتُ فيه إلـى ما يتصوره فلاسـفة الغرب وملاحدتهم عن الدين فيسميه بـ (العلم) ويسمِّي أرباب هذا التصور بـ (العلميين!) لما في ذلك من بعدٍ عن الحقيقة ومجافاةٍ للواقع[1]. ومن هنا يمكننا أن نقول: ليست الألقاب وحدها كافية لإنزال الأشخاص منازلهم التي يجدر بهم أن يتربعوا فيها.

القبس الثانـي: ملامح من منهج الإمام الشهيد في تأليف كتابه: كبرى اليقينيات الكونية- وجود الخالق ووظيفة المخلوق.

بداية لابدّ أن نذكر أن الإمام الشهيد خاطب في كتابه سالف الذكر الناشئة والشباب المثقف والباحثين على اختلاف وجهاتهم ومشاربهم. أما المؤمنون فزادهم إيماناً لما وجدوا فيه من الأدلة الواضحة القريبة. وأما أصحاب القلوب الحرة والعقول التي لم تستعبدها الأغراض والشهوات، فقد وجد فيه كثير منهم ضالته، وانتهوا من رحلتهم الفكرية المضطربة إلى طمأنينة الإيمان، متسلحين في ذلك بأدلة علمية قاطعة. وأما من وضع رغائبه النفسية في المكان الأول من حياته الفكرية والعقلية، فلا شك في أنه لم يستفد منه شيئاً، واكتفى في موقفه منه بالوجوم فقط، إذ مَن كان هذا حالُه لا يجدي معه عقلٌ ولا حجةً ولا برهان[2].

ولهذا لم يتوجَّه المؤلف- رحمه الله- بكتابه إلى مثل هؤلاء أصلاً. ولهذا نجده يصوغ كلمات إهداء الكتاب في الجمل الآتية: ((إلى كل حرٍّ يضع عقيدته من وراء عقله، ويطلق عقله من أسر إرادته، يفكر ليختار الذي يريد، ولا يريد ليفرض على عقله كيف يفكر، أُهدي هذا الكتاب))[3].

ومع ذلك فإن الكتاب لاقى رواجاً وإقبالاً وانتفع به خلق كثير لما فيه من حسن العرض، وعمق الفكر، وإمتاع العقل والعاطفة معاً.

أردت من وراء ذكر هذا القبس أن أشير إلى ما تراءى لي من حسن الاختيار والحكمة والتوفيق الإلهي للإمام الشهيد في منهجه الذي اختار الالتزام به في كتابة بحوث هذا الكتاب، ويتجلى ذلك في النقاط الآتية:

---

[1] انظر: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 52 – 53.

[2] انظر: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 10 .

[3] المرجع السابق ص 3 .

1" – أنه ابتدأ كتابه بتمهيد ذكر فيه ((المنهج العلمي للبحث عن الحقيقة عند علماء المسلمين وغيرهم)) وجعل من هذا المنهج ميزاناً بينه وبين القراء[1]. وهو شـأن كل باحث حرٍّ؛ إذ يبدأ قبل عرض أفكاره التي يريد إقناع الآخر بها أو محاورته فيها باعتماد منهجية علميةٍ محددةٍ تكون سبيلاً صحيحاً في الوصول إلى الحقيقة،و تكفل عدم التباس اليقينيات بالظنيات أو الوهميات[2]. ولم يستق الباحث شيئاً من أسس هذا المنهج إلا من القيم العلمية والمنطقية التي يتعامل بها كلُّ العقلاء. وإن كان لابد من الإقرار بأن الذي أرساها قانوناً علمياً للدراسة والبحث إنما هو الفكر الإسلامي في صدر تاريخه[3].

2" – لم يعتمد في المنهج العلمي للبحث عن الحقيقة وفي عرضه لبحوث العقيدة الإسلامية في هذا الكتاب إلا على الأدلة والبراهين القطعية التي تحمل قيمتها العلمية الثابتة والتي لا تختلف باختلاف الزمان أو اللغات، فهي بمنزلة العملة العالمية الرائجة في كل مكان، وما من إنسان عاقل إلا وهو يعلمها ويتعامل بها سواء شعر بأنها قوانين علمية ثابتة أم لم يشعر.

وذلك من مثل قانون بطلان الدور، والتسلسل، والرجحان بدون مرجح، واجتماع النقيضين[4].

3" – لم يستند في عرض شيء من بحوث العقيدة الإسلامية في هذا الكتاب على الفلسفة اليونانية أو المنطق الصوري. على أنه يذكِّرُ القارئ بأن الفلسفة اليونانية أو المنطق الصوري (أقيسته) ليس كلُّه مخيفاً أو فاسداً. بل إن فيه الكثير مما هو مفيد ونافع. وفيه كثير مما انتقده به فلاسفة المسلمين وغيرهم[5]. وفي هذا من الحكمة ما فيه؛ لأن فيه تأكيداً على أصالة الفكر الإسلامي.

4"– لم يخض في حقيقة الصفات الإلهية وتحليلها، وهل هي عين الذات أم غيرها؟ وما يترتب على كلٍ من القولين، واكتفى باتباع مذهب جمهور المسلمين في ذلك؛ إذ يسع المسلم أن لا يفكر في ذلك أصلاً، وأن لا يلتزم إلا ما نسبه الله تعالى إلى نفسه من صفات الكمال. على أنه لا توجد ثمة أي شبهة في الإيمان بالله يتوقف ردها على الخوض في هذا البحث الذي لا طائل فيه[6].

---

[1] انظر: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 29 – 54 .

[2] انظر: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 23.

[3] انظر: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 16.

[4] المرجع السابق المكان نفسه .

[5] المرجع السابق المكان نفسه.

[6] انظر: كبرى اليقينيات الكونية ص 24.

ثم إن هذا المبحث من المباحث الكلامية التي تخرج عما تعبَّدنا الله تعالى به من أمور الاعتقاد. ولا مصلحة لهؤلاء المثقفين من قارئي الكتاب في إرهاق أذهانهم فيه. ومقصد المؤلف إنما هو تعبيد الطريق لهم لتحصيل ما يتوجب عليهم اعتقاده فقط، مما يجعلهم في غُنية عن هذا المبحث وأمثاله.

ولهذا نجده يقول في كتابٍ آخر له رحمه الله: ((ولسنا نعني بأمور الاعتقاد ما قد تزيده كثير من علماء علم الكلام على أصول العقيدة التي بها يتحقق إيمان المؤمن وإسلامه، مما لم يذكره كتاب الله ولا سنة رسوله، ولم يخض فيه أصحاب رسول الله ﷺ، سواء أكان مما تجدر معرفته والتحقيق في شأنه، أو كان مما يفضل تجاوزه وعدم إشغال الذهن به. وإنما نعني بأمور الاعتقاد في هذا المقام، مالا بدَّ للمسلم من معرفته ثم اليقين به، كوجود الصانع جلّ جلاله، وصفاته، وعبودية الإنسان له، ومسؤوليته تجاهه، وما هو مقبل عليه بعد الموت..))[1].

5" –عدم الخوض في كثير من الخلافات التي قامت بين المعتزلة وجمهور المسلمين من أهل السنة؛ إذ هي أمور لا ينتهي الجزم فيها بأحد القولين إلى الكفر؛ لقيامها في أدلتها على شبهةِ تأويل النص وفق القواعد اللغوية في الأعم الأغلب. وليس ثمة مصلحة تحمل على ذكرها في عصرنا هذا، لا سيما مع المثقفين من ذوي الاختصاصات في علوم مختلفة لا تعلق لها بعلوم الشريعة. فحسبهم في ذلك تبني ما اتفق عليه جمهور أهل السنة مقروناً بالدليل والبرهان[2]. وبالمقابل صرف عنايته– رحمه الله– في عرضه لمقومات العقيدة الإسلامية إلى ما يشغل أذهان هؤلاء المثقفين من الشبهات الجديدة وإلى كشف زيفها، من مثل ما يسمى بالنظرية المادية لأصل الأشياء،وقصة التطور والنشوء، والمذاهب الجديدة في تفسير الفكر والوجود[3]. وهو منهج سديد في الدعوة إلى الله تعالى ، ويلامس حاجات الأفراد في واقع حياتهم ومجتمعاتهم.

6"–عدم الإطناب في ذكر الأمور التي لم يثبت فيها دليل قطعي وبرهان يقيني؛ بل لعله لم يتعرض لكثير منها، فكان تركيزه على ما قام على القطع منها، فكانت بذلك من مقومات العقيدة التي لا يسع المسلمَ إنكارُها أو تجاهلُها. ومن المعلوم أن لليقينيات منهجاً خاصاً يفضي إليها لا يصح

---

[1] الإنسان مسير أم مخير للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص 13.

[2] انظر: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 24 – 25 .

[3] انظر: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 21.

أن يستبدل به غيره[1].و بذلك يكون المسلم على بينةٍ من أمره في شأن عقيدته، وما هو مطلوبٌ منه شرعاً منها.

القبس الثالث: موقفه من علم الكلام ودفاعه عنه:

يرى الإمام الشهيد أن خير تعريف لعلم الكلام هو ما عرّفه به العلامة ابن خلدون (808 هـ) في مقدمته بقوله: ((هو علم يتضمن الحجاجَ عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والردَّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة))[2].

وذلك من أجل إثبات العقائد الدينية ودفع الشبه عنها. وهو ما نجده مصرحاً به في تعريف الإيجي (756 هـ) له: ((علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها))[3].

ومن المعروف أن لهذا العلم مؤيدين ومعارضين، فأنصاره استحبوه وأوجبوه، ومعارضوه استنكروه فكرهوه أو حرموه.

وبعيداً عن ذكر أدلة الفريقين التي لسنا بحاجة إلى ذكرها هنا يقرر العلامة الشهيد أن الخلاف بين الفريقين خلاف في الظاهر، وأنه لم يحرر محل الخلاف بينهما. ويذكر في حلِّه ((أن الذين استنكروا علم الكلام إنما حذروا من اتخاذه صنعة وديدناً، والتنطعِ به بموجب وبدون موجب. وقد قال رسول الله ﷺ: {هلك المتنطعون}[4] على أنهم أنكروه قبل أن تشتد ضراوة الزنادقة وتشيع شبههم في الناس. وهذا الاستنكار بهذا القيد ليس محلّ خلاف، فحتى الذين ألفوا في علم الكلام واشتغلوا به كالإمام الباقلاني، حذروا من استعماله في غير حاجةٍ إليه.

وأما الذين استحبوه وعدوه من الفروض الكفائية، فإنما عدّوه كذلك بعد أن شاعت الشبه والمشكلات، وبعد أن تغلب تيار النقاش والجدل حول آيات الصفات والآيات المتشابهة في المساجد وحلقات العلم، على الوازع الديني الذي كان يجعل الناس يلجؤون إلى حِمَى السكينة الإيمانية والتسليم لمراد الله، كلما طُرحت شبهة. فاستلزم الأمرُ إعداد العدة، وإفحام الباطل بسلاحه، وإسكاته بذات

---

[1] انظر: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 25 .

[2] انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص 21 .

[3] شرح المواقف للجرجاني : 1 / 34 – 35 .

[4] من حديث عبد الله بن مسعود ، أخرجه مسلم في كتاب العلم، باب: هلك المتنطعون (رقم 2670).

الحجة التي يصطنعها دعاته. وهذا الاستحباب المقيد بهذا الحدِّ لا نراه محلَّ خلاف عند أحد الطرفين))[1].

ويذكر – رحمه الله– أن سلفنا الصالح إنما ألفوا في هذا العلم رداً على الزنادقة الذين اتكؤوا في زندقتهم على شبه فلسفية، وعلى فرق شاذة اتكأت في شذوذها على تكلفات عقلية، ((وكانوا– رحمهم الله – بين أن يسكتوا عن هؤلاء المتنطعين فيشيع في الناس أمرهم، ويتسع إلى العقول الغافلة طريقهم، وبين أن يتصدوا لهم فيكشفوا عن زيف شبههم وسفسطة أدلتهم وفساد طريقتهم، فلم يترددوا في أن يؤثروا الثاني على الأول استجابة لما تقضي به ضرورة الدعوة الإسلامية، ولما هو معروف من حكم الله في ذلك))[2].

ولعل من أقوى الشواهد الكثيرة على ما ذكره العلامة البوطي في الفقرة السابقة والواردة على لسان أحد أئمة السلف ما قاله الإمام أبو حنيفة النعمان – رحمه الله – ونصه: ((وأصحاب رسول الله ﷺ إنما لم يدخلوا فيه، لأنّ مثلهم كقومٍ ليس بحضرتهم من يقاتلهم فلا يتكلفون السلاح، ونحن قد ابتلينا بمن يطعن علينا، ويستحل الدماء منا، فلا يسعنا ألا نعلمَ مَن المخطئ منا ومَن المصيب، وألا نذبَّ عن أنفسنا)) [3].أي أنّ الدفاع عن عقائد الإسلام بالحجة والبرهان في تلك الحالة أمرٌ توجبه ضرورة الحال التي لا تندفع إلا بذلك.

ويرى – رحمه الله – أن هذا العلم إنما يطلق على المناقشات العلمية التي دارت في الماضي وتدور في المستقبل حول مبادئ العقيدة الإسلامية بقطع النظر عن نوع الشبه وطريقة البحث والنقاش، فإن كلّ ذلك من شأنه أن يختلف من عصر إلى آخر[4].

ومن ثمة فهو يدفع مقولة بعض المفكرين المحدثين من أن علماء الكلام أفسدوا صفاء التوحيد بما حشدوا في بحوثهم من قواعد الفلسفة ومبادئ المنطق، وأصول الجدال، وأنه كان يغنيهم عن ذلك اتباع منهج القرآن وعرض براهينه بقوله: ((لا تنافي بين المنهجين، ولا تعطيل لأحدهما على حساب الآخر. فنحن بحاجة إلى عرض منهج القرآن بالنسبة لمن تركزت في قلبه مبادئ الإيمان بالله ورسوله؛ ولكنه لا يزال بحاجة إلى تقويتها والحفاظ عليها وإقامة الصورة الإسلامية الصحيحة في فكره دون أي

---

[1] العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر للدكتور البوطي ص 24 – 25.

[2] كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 21 في الحاشية.

[3] إشارات المرام للبياضي ص 32 – 34 . والأَوْلى أن تكون نهاية هذا النص المنقول بالألفاظ الآتية:((فلا يسعنا إلا أن نعلم من المخطئ منا ومن المصيب، وإلا أن نذبَّ عن أنفسنا)).

[4] انظر: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 17.

زيفٍ أو انحراف عنها. ونحن ننصح لمثل هذا الإنسان بعدم إضاعة الوقت في هذه المناقشات الفكرية التي تحوم حول البحث في شبهات ما هو منها في شيءإلا أن يحتاج إليها في مجال توجيه الآخرين وتعليمهم.

ولكنا بحاجة إلى المنهج المنطقي والفكري العام الذي سلكه علماء الكلام بالنسبة لمن لم يدخل بفكره بَعْدُ في دائرة الإيمان بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله.

إن من العبث أن تعرض أمام هؤلاء آيات القرآن وعظاته وهو لم يؤمن بَعْدُ به. وإن من العبث أن تعمد إلى من استحكمت في فكره شبهة فتعالجها بهذا الذي يفهمه البعض من معنى منهج القرآن)) [1].أي أن اصطناع معارك عقليةٍ للرد على شبهٍ ومشكلات فلسفية لا وجود لها عند المخاطَب أو في فكر أحدٍ من أفراد المجتمع تنطعٌ ممجوجٌ وتضيعٌ للوقت. واستثارة نوازع الفطرة ومخاطبة العقل بأدلةٍ عقليةٍ عامةٍ قريبة التناول،كما هو الحال في منهج القرآن الكريم ؛حيث تجثم الشبه العقلية والفلسفية لا يجدي نفعاً[2].

ويتابع العلامة الشهيد كلامه قائلاً : ((وأقول: بهذا الذي يفهمه البعض ولا أقول: منهج القرآن، لأنّ المنهج الذي سار عليه أكثر علماء الكلام في عصورهم ونحن نسير عليه في مثل هذا الكتاب- يعني: كبرى اليقينيات الكونية- ليس خارجاً عن منهج القرآن. فالقرآن أمرنا أن لا نقفو في أفكارنا واعتقادنا مالا علم لنا به.

وأمرنا أن نحكّم العقل وموازينه في كلّ ما يعرض لنا من أمور الحياة. والقرآن ناقش المشركين طبقاً لميزان (العلة الغائية) الماثلة في الكون. والقرآن نبه أفكار المشركين إلى بطلان الشريك لله تعالى طبقاً لما يقتضيه برهان (التمانع) كما نبّه أفكار المشركين إلى ضرورة وجود الله ﷻ استدلالاً بقانون بطلان الدور وقانون بطلان الرجحان بدون مرجح [3].

---

[1] كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 17-18.

[2] انظر العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر للدكتور البوطي ص 23 .

[3] برهان التمانع تجده في قوله تعالى: ﴿ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ېې﴾[الأنبياء: 22]. وبرهان ظاهرة العلة الغائية واضح في تلك الآيات الكونية التي يلفت البيان الإلهي فيها النظر إلى ظاهرة التناسق في خلق المكونات من مثل قوله: ﴿ۉ ۉ ې ېې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئې ئى ئى ئى ی ی ی ی ئج ئح ئم﴾ [يس: 38 – 40]، وبرهان بطلان الرجحان بدون مرجح وبطلان الدور تقرؤه في قوله تعالى: ﴿ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ﴾ [الطور: 35 – 36].

فأيُّ دستورٍ تريده من القرآن أكثر من هذا كي تطمئن إلى أن مناقشة أصحاب الشبهات طبقاً لمقتضى الأدلة والبراهين التي يتعاملون بها هو من صميم المنهج القرآني؟))[1].

ولا ريب في أن القول الفصل في هذه المسألة هو: ((إن علم الكلام اليوم، في حدود الحاجة الماسة إلى التصدي لأسباب الزيغ وموجباته الحديثة، بما يلبس أردية المنطق والعلم، في الظاهر، من أشرف ما يجب على المسلمين الاشتغال به والانصراف إليه، وهو ضمن حدود الحاجة إليه داخلٌ في صميم المنهج القرآني للتبصير بحقائق الإسلام وعقائده.

على أن هذا العلم لا تزيد فائدته على كنس الوساوس الفكرية وطرد الشبه العقلية التي يخيل إلى من وقع في شراكها أنها حقائق ثابتة، أما تنمية اليقين بالله في القلب فعلاجه اتباع شيء آخر وراء هذا العلم، وهو السعي إلى تزكية النفس من أوضارها عن طريق الإكثار من ذكر الله في الغدو والآصال، والإكثار من تلاوة القرآن، والعبادات، وتطهير اللقمة، والابتعاد جهد المستطاع عن ظلمات الآثام والمعاصي))[2].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

[1] كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي ص 18.

[2] العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر للدكتور البوطي ص 25.